السـرداب

قصة بقلم فاروق منيب

لم يكن الاستاذ عفت يتوقع ما يحدث له الان بمثل هذه السهولة. فقد تحققت امنيته منذ شهور . اطمأن على بيته ، أصبح ينام ملء جفونه يسمع صوتي كلبيه ، فيشعر بالفخر والاعتزاز . لن يستطيع اللصوص الاقتراب من المنزل . اذا تسلقوا السور ،فلن يفلتوا منهما . ما احلى لعبهما في الصباح الباكر . يظل يراقبهما بفرح وحب الى ان ينعشهما دفء الشمس اللذيذ . ذكر وانثى .. روك وريتا . يعشقان الحياة ، لا يفرطان في لحظة من لحظاتها الممتعة .هو سعيد ممتن لتلك المصادفة الجميلة التي جعلته يعثر على هذا الصنف النادر من الكلاب . رفض البلدي الرخيص ، ولم يرض بالنوع الداوعة المخنث الارمنت. اما ريتا وروك ، فهما من النوع البوليسي النادر الذكي. انهما في منتهى اللطافة والمودة ، لكنهما ينقلبان الى وحشين كاسرين عندما يشمان رائحة احد الغرباء . الان تقلب ريتا وروك حياة الاستاذ عفت من الامن والراحة الى النكد والكدر . يحاولان قفز السور المرتفع بين آن وآخر . فشلا في محاولاتهما مرات عديدة .. الى ان كانت لحظة سخيفة ساعدتهما على النجاح . تسلقا فروع اشجار الزينة ، ثم هبطا في الشارع ، فجرى وراءهما يعيدهما الى الداخل . ضحك من لعبهما الثقيل . ضربهما ضربات خفيفة حتى لا يقعا في الخطأ الذي وقعا فيه دون قصد. ولعب الكلبان معه وهما فرحان . ظلا يقفزان ويشبان على صدره ويديه وكأنهما يودان عفوه المنتظر . قدم لهما طعاما شهيا حتى يغريهما بالبقاء داخل البيت .. لكن الشك بدأ يتسلل الى قلبه. اذا تكرر قفزهما ، فسوف يالفان الناس . ربما تقل حاستهما المتوحشة بمرور الايام . اذن لا بد من حجزهما .. ليكن الشارع محرما عليهما من الان . المشكلة كيف يحدث هذا ؟ في البداية رسم خططه في الترقب والانتظار ، فربما كان قفزهما الاول حماقة لن تتكرر ... لكنه فوجيء في مرة ثانية ، وبسرعة مذهلة ، انهما في الشارع . ارجعهما وفي نيته ان يكون اكثر صرامة في هذه المرة . ربط كل واحد منهما بسلسلة من الحديد الثقيل ، ثم ربطهما باحد الاعمدة الرخامية الداخلية . بدأت المتاعب الحقيقية . ارتفعت اصوات صرخاتهما العالية . فلما تعبا من الصراخ تحولا الى الانين ، فلما يأسا من الانين ، سكتا الى حين . وارتاح الاستاذ عفت .. قال في سره .. الحمد لله .. كانت نزوة وانتهت .. هذان الكلبان لا يستطيعان مخالفة اوامري .. المثل يقول .. اطعم الفم ، تستحي العين . اكثر لهما الطعام ، وغمرهما باللحم وبالعظام . اكل الكلبان قليلا ، ثم امتنعا عن الطعام . سال لعابهما على السلاسل الحديدية . افرغا ما في جوفهما . تقزز الاستاذ قفت للمنظر الكئيب . فك اسارهما بعض الوقت . عادت انتعاشة الروح اليهما . قفزا اليه يتوددان ويستعطفان وعيونهما نحو الباب . رق قلبه ، امسك السلسلتين.. فجريا امامه الى الخارج . بدأ في لعب لطيف ظريف هامش .. ثم انتهيا الى مفازلات غرامية واضحة . هذا هو مراد الاستاذ عفت .منذ فترة عندما كان روك بمفرده كان يأسى من اجله . حقا كان لا يعرف القفز الى الخارج ، ولكنه محروم من أليفة لحياته . أحضر له ريتا الجميلة حتى تشاركه ايامه تدغدغ فيه حسه الخشن .. عادا الى الحديقة وهما منتشيان يلهثان من الفرحة ..تلكآ عند الباب قليلا.. لا بأس ان يفك سلاسلهما في الليل ، ثم يربطهما في النهار .وبات ليله آمنا . لا بد ان يكون عادلا . الحرية اغلى شيء في الوجود. وفي الصباح قدم لهما اللبن الحليب بالعيش الساخن . اكلا وهما ممتنان سعيدان . وفرح هو الاخر . ذهب الى عمله . لم يفارقه خيال الكلبين وهو يوقع على الاوراق ، وهو برأس الاجتماعات ، وهو ينظر في الشيكات ،وهو يناقش المشروعات الهامة . شغلا عليه حياته. اصبحا انيسيه المفضلين . كان يخشى بوادر الصراع بينه وبينهما بعد حادثتي الهرب العابرتين المفاجئتين ، ولكن يبدو ان امله تحطم سريعا . ففي صباح ما ، استيقظ على صوتيهما في الشارع. انتزع من حلمه اللذيذ . اذن المسألة ليست بسيطة . هي تحتاج الى تفكير وتدبير . لن تنفع الاساليب الانسانية في معالجة الموقف . لا بد ان يكون متشددا بعض الشيء . يروضهما على البقاء بالداخل حتى يتعودا الصبر . نظر اليهما من النافذة ، فوجدهما يجريان سعيدين فرحين ، يقطعان الشارع طولا وعرضا ، يشبان على اقدامهما الخلفية لملاحقة اي طفل عابر ، يحملقان حول الدكاكين المجاورة، يقفزان على أيدي اصحابها ، شاط من الغضب والغيظ . خرج الى الشارع ربما لاول مرة ببيجامته . سحبهما من سلسلتيهما بقوة. ادخلهما وهو يغلي . انتوى ان يؤدبهما في الحال . امسك أحد فروع الاشجار ، ونزل عليهما ضربا .. تكسر الفرع في يده ، فاقتطع آخر الى ان صمت الكلبان تماما .. بانت الذلة في عيونهما ..نكورا في ضعف على البلاط .. انخفض انينهما المقهور الى اعماقهما ... اقترب جسداهما من بعضهما ليواسى كل منهما الاخر .. ربما كانت ريتا هي البادئة .. ارتاح الاستاذ عفت في داخله .. لكن الازمة تكبر في راسه . بدأ يفكر تفكيرا جديدا . يبدو ان المشكلة سوف تطول.

هل يغير سياسة الليث التي تعود عليها فترة طويلة الى سياسة القوة ... ام يجرب الحيل ؟! . كان مضطربا لا يستطيع ان يصل الى قرار حاسم فاصل .. فضل في النهاية ان ينتظر ، ياخذ حذره ثم ينتظر . لماذا لا يحيط سور الشجر بسور اخر من السلك الشائك ، سوف يمنع خروجهما . وشرع في عمله على الفور .ركب عربته وذهب يبحث عن السلك الشائك . هناك ازمة محلية في سوقه . لم يعثر عليه ابدا . تعجب من المفاجآت المضحكة . ما أكثر كميات السلك الشائك القديم . كان يراها امامه في اي شارع يمر به . واخيرا دلوه على وكالة البلح ، فاعترته النشوة العارمة . اطلق للعربة العنان .حمل من هناك لفتين كبيرتين . كان يتفنى وهو يقود العربة.. لن يفلتا مني بعد الان . المهم ان يحكم تركيبه بنفسه بعد ان خلع بدلته الرسمية ، لبس اوفرول العمل متواضعا ، راح يدق المسامير يركب عليها الاسلاك الشائكة ، الى ان تكونت شبكة حصينة منيعة، لا ينفذ منها الا النمل . وسال عرقه في العمل ، فتكشفت سريرتهعن رضى وقناعة كان يتوق اليهما منذ زمن بعيد . وقف يلقي نظرة على سوره الجديد ، فانسر في داخله . أعترته موجة من الثقةوالاطمئنان والفخر . طبب جروح اصابعه بصبغة اليود والجليسرين والماءالدافيء خلع الافرول ، ثم رماه بعيدا . وعاد الى زيه الرسمي متخايلا متعاجبا من ينتصر عليه اليوم ؟ . ترك الكلبين يمرحان دون ان يقيدهما لياخذا حريتهما داخل الحديقة . ماذا يعنيه الان غير الراحة التي حرم منها في الايام الماضية ؟ .

وعلى الطرف الاخر كانت ريتا وروك يفكران في مصيرهما .يرقبان جيدا ماذا يفعل الاستاذ عفت منذ ان وضع لفتي السلك الشائك بالحديقة . نظرا الى بعضهما . ابتسما . خافا . ثم تعجبا .. ثم اصابهما الذعر من المفاجآة .. ثم تماسكا .. العين بالعين والسن بالسن .. والبادى هو أظلم .. ليستكنا قليلا .. شربا حتى ارتويا .. تمددا في الشمس الدافئة . ظلا يتحاوران في صمت مدة طويلة. كل منهما كان يفهم ماذا يريد الاخر ان يفضي به . تحملا برد الشتاءمعا . قلقا فيعزالليل . كفا عن النباح. اخذتهما سنةمن النوم، استيقظا بعدها فزعين . قال روك :

ـ وما العمل ؟.

قالت ريتا :

ـ امرك يا مولاي .

قال روك :

السلك الشائك امامنا .. والجدار خلفنا .. وليس لنا من خيار

واطل عليهما الاستاذ عفت من اعلى السلالم . كان يمسك باحدى يديه بقايا عظاموالحم ، وباليد الاخرى اناء ماء .. أطعم الفم، تستحي العين .. هذا هو مثله المفضل . اقترب منهما في خشية . هزا ذيلهما خائفين . انتفضا مذعورين . ترددا في الاقتراب منالطعام نادى عليهما ، فلم يجيباه بشيء . ظلا واقفين بعيدا متحفزين حذرين . هرشت ريتا ظهر روك حانية . دغدغ روك رقبة ريتا متعجبا. تركهما الاستاذ عفت قافلا على نفسه الباب .. ربما يكونا غاضبين.. لا يهم .. هو لم يتجن عليهما .. طالما حاول ان يروضهما دون جدوى . ودق قلبه في صدره ، ما زالت هناك فرصة اخيرة ..ليركب عربته كل عصر .. وليجربا وراءه للنزهة .. لن يطيقا الحبس مدة طويلة .. وانتوى ان ينفذ مشروعه غدا .. غير انه فوجيء فيصباح اليوم التالي وهما في الشارع .. ضرب كفا بكف . لم يعد يطيق صبرا . كيف خرج الملعونان عبر السلك الشائك ؟ لن يستسلم لهما مهما كان الامر . مر على السور يبحث عن منفذ واحد ربما يكونان قدخرجا منه . وحين يئس من البحث ،خلع ملابسه ، ولبس الافرول الممزق مرة اخرى ، وراح يقطع بعض الواح الخشب الحبيبي قطعا طويلة ليعلى بها ارتفاع السور . كاد اليأس ان يصيبه اثناء العمل .. ليسرح هذان الكلبان المتعبان !.. ولكنه عاند نفسه ، فكيف يتغلب عليه الكلبان السخيفان ؟ اذا تنفع تعلية السور بالخشب الحبيبي ، فلا بد ان يحضر لهما مدربا قاسيا غليظا ، يضربهما ويؤدبهماحتى يتوبا . المشكلة ان هذا المدرب من المحتمل ان يسرقهما .. ليؤجل حكاية المدرب بعض الوقت . وقضى يوما حافلا في العمل .. شعر بسعادة كبرى في آخره . نجحت خطته . خرج الى الشارع ونادى على الكلبين ليقفزا ،وكانا يشبان على ارجلهما الخلفية ، لكنهما لا يستطيعان ان يطاولا السور المرتفع ، اختفى حتى لا يراه ، فيخافا منه ، تسللا الى السور . راى محاولاتهما الدائبة دون جدوى .ابتسم منتصرا . كل تمرد وله نهاية . انه يخاف ان ينقلب هذا التمرد الى ثورة لا بد ان يطعمهما ضد مرض الكلب حتى يطمئن . وقرب المغرب كان الطبيب يحقنهما بالمصل الواقي ، فيهمد منهما الجسدان ويصبحا دائخين . زاهدين في الطعام والشراب . ظلا كالتائهين عدة ايام . وكان الاستاذ عفت قد استشار الطبيب اكثر من مرة في حالتهما ،فلم يجد منه غير كلمات الاطمئنان .. ولكنه يرى بعينيه كيف يذوي روك بعيدا عن ريتا ربما لاول مرة .. لا يسمع لنباحهما اي اثر . حتى ليفتح لهما باب الخروج ، فلا يقربانه . ما هذه العين التي اصابتهما ؟! ربما كانت شدة وتهون . وتزايل عقد كراهيته لهما . فهما الان مستسلمان وديعان ،ينقلان خطواتهمابصعوبة ايمكن ان يكون تاثير المصل الواقي في جسديهما الى هذا الحد ؟! انه ليس مرضا ،بل روح شريرة تقمصتهما . لا تنفع معها الادوية ولا الاحجبة . شيء واحد اعاد الامل الى قلبه . وضع حفنة من الشيحعلى بعض قطرات من روح النعناع ، وقدمها لهما في صباحين متتالين. الغريب ان ريتا وروك بدآ يصلبان قامتيهما . وشيئا فشيئا استردا عافيتهما الضائعة . سرى الدم في عروقهما . سال اللعاب على شفاههما . بدآ يلفان حول السور من جديد يتاملان فتحاته الضيقة. يطلان برأسيهما الصغيرتين منها . يجريان الى الباب عند اي طارق. يحتفلان به احتفالا كبيرا . يندهش الاستاذ عفت لهذا البرود الذي يتحلى به كلباه العزيزان . مهمتهما تحتم عليهما ان يكونا يقظين ، يرتفع صوتهما دائما محذرا ومنذرا من الاقتراب من البيت . لكنهكان يقنع بهذا البرود في بعض الاحيان حين يتذكر السكون الذييتحليان به .. غير ان فرحته لم تتم . ففي وضح النهار دخل الى حجرة نومه يستريح وقت الظهر . استغرق في النوم .. لكنه استيقظ على طرقات بالباب . مسح وجهه وآثار النوم ما زالت في عينيه :

ـ مين !؟

ـ احنا يا استاذ عفت .

كان هناك شابان يسحبان ريتا وروك من سلسلتيهما . لم يصدق عينيه في اول الامر . اندهش . كاد ان يسقط من طوله من شدة المفاجاة . قال له احد الشابين :

ـ لقد وجدناهما في اخر الشارعيلعبان مع بعض الماعز..

وقال الشاب الاخر :

ـ جربا الينا مسرعين يتمسحان بنا .

وادخلهما الى البيت. طالما ابعد تلك الفكرة عن خاطره زمنا طويلا ، ولكنه لم يستطع الا ان يلجا اليها في النهاية . جرى الى حجرة نومه ، وكان يرث كرباجا عن والده . انزله من صندوقهالقديم. وطرقع به في الهواء . تقدم الى روك اولا ، يعتبره مسئولا عنزوجته. ضربه ضربة مباغتة ، فانّ الكلب من هول المفاجاة . ونزل عليه يؤدبه. فعوى مقهورا مستضعفا . وفي احد الاركان كانت ريتا ترى ما يحدث،

اجمل نجوم في نهد الجرة

الى الفدائي البطل امل امتنا
في التحرير والعودة

ابصر صبح اليوم بكل ملامحه ذات الصبح ليوم آخر
قمر العشاق المترقرق في هودج روميو ـ جوليت
قيس ـ ليلى
نفس القمر الساهي في أرجوحة الزا ـ أراجون
منذ قرون

فالصورة يا سكان العالم ذات الصورة
لكن الوضعية تأخذ وضع الرامي : جاث ـ مستلق ـ واقـف

***

يا سكان المعمورة يا اصحابي الخلص
في ذاكرة الايام انا معكم .. نقطة ماء سقطت سهوا..
تسعى عفوا حسب مشيئة شيء يسعى حسب مشيئة شيء
فتمسك بخيوط العنكب ولها بتجاوز كل جسور الموت الاكبـر

فالسقطة بحار أسلم زنديه لأمواج المطلق

***

عمق مجرى النهر الرائع في تجوالك
انقش جل مشاوير المرض ـ الصحة ـ اوسمة فـي صدر الصمت
وقع اسمك ـ عمرك ـ في الأسفل تحت
خوفا من تمثال يطمس كل خصالك
أوبيت ـ شجرة بغض ـ حجر ينخر في اوصالك
ثم اقذف نفسك لقمة طيب تسمن ـ تفني في فك الموت
فوق تحت فوق تحت

***

الماء طليق في الغابة وعظيم من يطفىء ظمأه

هيفاء مرعي

فتنكمش بلا حراك الى الجدار . وعندما اقترب منها الاستاذ عفـت انتفضت مذعورة . جرى وراءهـا ، فتحملت وقع الكرباج صابرة .وصمم ان يقيدهمـا تمامـا . امسك روك مـن قدميه الاماميتين ، فقيدهمـا ، ثم ربطهمـا . واستسلمت ريتا دون مقاومة ، فتكوم الاثنان هامدين . جف حلقه من العطش فافرغ في جوفه زجاجة كوكا كولا حلوة المذاق.

ما كـان يتمنى هذا المصير النفسي للغريمين العزيزين ، ولكن هذه حال الدنيـا . من لم يتعظ بالكلمـة الطيبة فلا بد من تاديبه بالعصى الغليظـة . وغفـا الكلبان في نعاس عابر من التعب تمددا بجوار بعضهما متعاشقين . سقطت ذرات من الغبار بجوارهمـا ، فهبا خائفين . لـم يستطيعـا ان يتحركـا خطوة واحدة . ضربا الارض باقدامهمـا .إحسا حديد السلاسل بلسانيهمـا . اخذ صراخهمـا طابع الندب . كـادت تظهـر عليهمـا علامـات الصرع .اكلا من طين الحديقة . اختلط لعابهما بالازهار المتفتحـة . التام مجموعـة من الاطفال في الخارج على الاصوات الصارخة . وفي الليل هدات الضجة . نزل السكون على كل شيء . ارتعشش الجسدان المذعوران . لم يعـد يسمع غير انفاسهما المتعبة . ونام الاستاذ عفت قرير العين بعـد ان تعشى بدجاجة محمرة ، ثم ابتلع بعض الحبوب المهدئة . وفي الصباح رضى عن نفسه عندمـا شاهـد ريتا وروك مطروحين كالخرقتين الباليتين . وتمر الايام والقيد يدمـى ارجاهمـا . يتعودان عليه . يعودان الى مطارحات الغرام اللطيفـة . يهزان ذيليهمـا للاستاذ عفت مودة وحبا .. الى ان اطمان لهما فـي النهايـة . فبدا يفك قيودهمـا شيئا فشيئا .. في البدايـة افرج عن ريتا ، فهرعت الى روك فرحانـة تتشمم رائحته ، ترقص منتشية. دق قلب الاستاذ عفت في صدره مضطربا لكنه ادرك الخدعة على الفـور، لن يفرج عن روك الملعون ، فهـو المحرض والمدبر . وظلا علـى هـذه الحال عدة ايام ، لم يعـد الشك يتطرق الى نفس الاستاذ عفت .كادت حكاية الهرب ان تصبح من ذكرياته الماضية ، يحكيها لكل من يقابله . انتعشت روحـه في العمل ، ولـم يعـد يتـوه عندمـا يكلمه احد ... الا ان اخـر المفاجآت كانت قاسية جدا . ففي عز الظهر وهو سـارح في تاملاته الوردية .. راى ريتا وروك يهرولان في الشارع وهما فـي غايـة الاعياء . الغبار يغطي جسديهمـا ، وعيونهمـا زائغـة شاردة . وانهارت منه اعصابه . وهنت نفسه الى الحضيض . كيف خـرجا ، ومتى ؟ !. وتحامل نازلا الى الحديقـة يبحث عن اي منفذ في سور السلك الشائك ، عند تعليـة الخشب الحبيبي . كان كل شيء محكمـا،يستحيل ان ينفذ منه شيء ابـدا .

ولكنه ـ وبالمصادفـة ـ وقعت عيناه على حفرة صغيرة بـالارض بجوار الجدار ، تتبعهـا ، فاذا هي سرداب قصير موصل الى الخارج. وكانت آثار اقدام ريتا وروك ما زالت حية على سطـح الرمـال الطرية. وعلت شفتيه ابتسامة مريرة ، ثم قهقهة ببلاهـة شديدة ، ثم صمـت فجاة كانه سمع خبر موت احد الاعزاء ، ثم تهالك بجوار وردة قانيـة الحمـرة .

حلـوان (ج.ع.م)

فاروق منيـب